الدنيا بيت كبير

قصة تعلم سليمان فياض

مهداة الى صديقي القصاص محمد ابو المعاطي ابو النجا

كان عائداً من السوق في الصباح ، حاملاً في يده بعض المشتريات التي يحتاجها البيت ، وهو يدنو منه بانغام يرسلهـا من انفه كعادته ، ويوقعها مع مزاجه النفسي . كان على شيء من السعادة ، ففي البيت صفاء ابنة خاله الريفية ، تلك التي ارسلت في حياته اشعة الأمل ، ونثرت على مستقبل ايامه ازهار التفاؤل ، وأزاحت عن كاهله اطنان اليأس ، وبددت من رأسه سحب الافكار السوداء . فلم يعد يرى ان الزواج لعنة ، والنسل جريمة . ولم يعد ينادي بين خلانه بوقف الحياة ، تلك التي لا تثمر سوى شقاء الانسان . ولم يعد يصرخ في وجه امه : لماذا انجبته . ولم يعد يسخر من رغبة الانسان في البقاء والامتداد .

وهمس لنفسه : هناك امل في صفاء لو اطالت المكث في بيتنا . هناك امل في ان تزول من نفسها طباع الريف واحاسيسه البليدة . فالبنت خـام . لم تنطبع شخصيتها بعد ببيئة القرية . وهتفت اعماقه ، وهو يرى صفاء التي صنعها على يديه في بيته : ما اجمل ان يكون للرجل امرأة . وما اروع ان تقيده الطبيعة بهذا القيد الجميل .

وتتابعت خواطره عذبة رخيمة ، سيرى الآن عيني صفـاء ، وسيلمس شعرها بيده ، ويوري لها عن هواه . صفاء .. هذه البنت التي عاش معهـا اياماً طويلة قضاها الى جوارها ، حيثما تحركت في بيتهم وحيثما رقدت . اياماً كانت عيناه طوالها لا ترتفعان عن وجهها الصغير وعينيها الجميلتين . اياماً كانت فيها صبحه ومساءه . إن تألمت من احد اخوته بدأ يثور من اجلها ، كضيفة يجب ان تعامل برفق . وإن ضحكت من شيء — حتى ولو لم يستحق الضحك — بدأ يشاركها المرح ، ويدفع بدعاباته معها البيت كله على ان يضحك ويبتسم ، وان يأمل ايضاً في النصيب .

هكذا كان معها منذ ان رآها في ظهيرة يوم طرق فيه الباب ، منذ فتحت له المزلاج تلك الصبية . ولم تكد تراه حتى انبثق الدم في وجهها الاسمر ، وتألقت عيناها لرؤياه . ثم ولت هاربة الى امه في المطبخ . اما هو فلم يكد يراها حتى احس بسرور غامر ينبعث في خفاياه ؛ فلأول مرة تخجل بنت لمرآه . ولأول مرة تشع عليه الفرحة مـن عيني فتاة . ولم تكد تذعر كالظبي في صحراء بيته حتى شعر بانفاسها المبهورة تنفض عن الجذوة الكامنة في قلبـه ركام الحرمان وهباء الفراغ . حتى الخجل من المرأة ، حتى الشعور بالانزواء قد تهايل من حوله .. فهنا فتاة . فتاة تأتي اليه وحدها ، دون ان يسعى اليها في خوف وخجل . وتبعها الى هناك حيث امه في المطبخ ، وقلبه يرسل ضحكات الفجر الوليد ، حارة عامرة الى فمه وصوته . واخذ يرحب بها بقلب ودود ، قلب يحمل لها عالماً اكبر وكلمات اكثر مما يحمله انسان لضيف .. لم تتكلم . ولكنها نظرت اليه نظرة ألاقة خاضعة ، طالما تمناها في رؤاه !

لقد كانت احلام الشباب قبل صفاء تتمزق في صدره حلماً وراء حلم ، من اجـل واحدة من بنات حواء ، واحدة تشع في قلبه الامل ، وتنثر في جسده الظامىء ذلك الخدر الدفيء . وكانت ايامه ولياليه قبلهـا فراغاً يغلفه اليأس ، ويتناثر على جنباته الحرمان . وكانت دنياه كلها حيـاة يملؤها الخجل والظمأ ، وكانت نفسه مقبرة يكسوها القلق بسواد الأحاسيس وظلمات الافكار .

ولقد كانوا في بيته يتهامسون برغبة اهل صفاء في ان تكون له ويكون لها . وكان هو يبدي الرفض لأنها بنت فلاحة لا ترتفع الى مستواه في الاحساس ، ولا تعرف كيف تتلقاه . ولكنه بينه وبين نفسه ، كان يرجو ان يناله ويصنع منها ما يشاء . فدنيـاه الخجلة لن تعرف كيف تحصل على واحدة من بنات المدينة الراقيات . حتى جاء يوم ارسلوها فيه مع خاله ، بحجة ان امه في المنزل وحيـدة ، واخوته بالمدارس اغلب النهار . ولكنه يعرف جيداً انهـا لم ترسل من اجل عيون امه — وهذا ما يسعده — بل من اجله وحده ، كي يراها ، وتراها معه احلامه الشاردة فتعود الى برجها المهجور . ولم يكد يراها حتى عادت طيور احلامه الى البرج الذي اورقت فيه صفاء . ومنذ تلك اللحظة ، وقد بعث القبر الراقد في نفسه واستحال الى افراح ، وبعث معه كل ما واراه من منى واحلام !

واجتازت خطاه باب العمارة التي بها بيته ، والسعـادة الدفيئة تملأ اوصاله كلما استعاد امسه المحروم ، وكلما احس بيومه الملىء . وشد ما كان عجبه حين رأى صفاء على اسفل سلم العمارة مرتدية ثياب الخروج ، فظنها ستبتاع لنفسها من المحال المجاورة بعض الاشيـاء . وسألها الى اين هي ذاهبة . فقالت وهي تداعب « اللبانة » باسنانها الصغيرة :

— الى خالتي سنية .

فهتف مذعوراً : الآن ؟ وحدك لروض الفرج البعيدة ؟

واجابت في إغراء : إن كنت متخوفاً عليّ تعال معي .

— لكن .. انا مشغول ، ولا استطيع الذهاب بك اليهـا . مللتني بسرعة يا صفاء ؟

كان بوده ان يركب معها الأتوبيس ، وأن يذهب بهـا الى اماكن كثيرة ، ولكن ليس الى خالتها سنية التي ستسلبها من بيته باسم الاكرام عدة ايام . وهتفت هي خائفة :

— هل انت مسئول عني ؟ انا قلت لأمك فأذنت لي .

وأحس بها تنكمش في قلبه وتستحيل الى طفلة عنيدة ، لا .. ليست هذه هي صفاء التي عرفها والتي كان يحلم بها منذ لحظات . وهتف بها في لهفة محاولاً اقناعها كي يستنقذها لنفسه من دنيا الاطفال :

— لكن يا صفاء انا ورائي موعد مع صديق ، وورائي محاضرة في الكلية لا بد من سماعها .. ارجوك ان تقدري ظروفي وتنتظري الى وقت آخر ، فسنية لن تموت ، ارجوك يا صفاء .

فهتفت في إصرار : لا يا سيدي .. لا بد من ذهابي لخالتي سنية .

— سنية ؟ من تكون سنية ؟ احسن مني عندك يا صفاء ؟

ولم تجب ، بل ضربت الأرض بقدمها الصغيرة في ملل ملح بأن ينزاح من فتحة الباب ، وفي عينيها الجميلتين كان يركب العناد السخيف . كانت تساوره رغبة في ضربها ، ولكنه لم يستطع . ولا يدري لماذا لا يقدر ان يضربها فكل ما يستطيعه ان يحتقرهـا بكل مشاعره . وانفرجت شفتاه عن بسمة ازدراء لعقليتها الريفية التي لا تريد ان تفهم ولا تريد ان تقدر ظروفه . لقد ذهبت كل محاولاته عبثاً امام عنادها الذي لا معنى له ، رغم انها جديدة في القاهرة لم تركب اتوبيس روض الفرج سوى مرة ، ولا يستطيع رأسها الصغير ان يحفظ معالم الطريق ولا محطة النزول فضلاً عن بيت خالتها الذي زارته مرة

مع ابيها على ما يعرف منذ عام . وامتد احتقاره الى وجهها الاسمر الساخط ولكنه لم يستطع ان يمتد الى عينيها الجميلتين حيث يرقد عنادها السخيف !

وأيقن انه لا بد ان يذهب معها وإلا ضاعت في شوارع القاهرة التي لا اول لها ولا آخر ، ولا بد ان يدع كل ما وراءه . وفي الواقع ان شواغله كلها لم تكن بأمر ذي بال لديه ، فما يفزعه الآن حقاً هو انهـــا عنيدة .. عنيدة الى درجة ان الحجر اكثر ليونة من رأسها ، وهذا العناد وحده هو الذي يفزعه الآن ، لأنه يحيلهـــا في نظره الى حجر يعز عـــلى الخضوع والانصياع ، ولأن جمالهـــا بهذا العناد يستحيل في حسه الى صخرة مصنوعة الرواء ...

.. وهتف لنفسه في يأس : لن تصلح لك زوجة ، لقـــد ضاعت البنت منك . وآن لك ان ترجع الى دنياك المنزوية بعيداً عن المرأة والحب.. لقد ضاعت فرصة العمر .. اجل ضاعت ...

وأحس بدوار في رأسه ، وانحلال في جسده ، بينما انبعثت في اعمـــاقه كراهية نحو هذه البنت . لن تنفعه بحال ، وان تصلح له زوجة وفي اعماقها هذه الطبيعة العنيدة ، بل سينمو معها العنـــاد في كل يوم .. وهتف بها في غير اكتراث :

– لا فائدة ؟ إذن فانتظري حتى اترك هذه الاشياء .

وصعد الى الشقة التي يقطنها ، وعرف من امه ان صفاء خرجت لتشتري شيئاً من محل قريب . ثم اخذ يهبط السلالم الى حيث تركها ، وهو يريد ان يؤنبها على خداعها لأمه وكذبها عليه . غير انه لم يجدها ، فظنها عند محطة الاتوبيس القريبة . فجرى اليها وفيروعه انها تنتظره . وشد ما كان ذهوله حين وجدها قد ركبت . الى اين ؟ لا يدري ... لا يدري اي سيـــارة ركبت ، ولا الى اي جهة جمحت اليهـــا هذه الشاة العنيدة . كان يجب ان تنتظره فقد كاد يغفر لها ويرضى عنها ويلتمس لها الاعذار بأنها ما تزال بعد ريفية . لم يكن يتوقع منها تصرفاً ألعن من العناد . وودت اعماقه ان تكون قد ابقت لنفسها عنده شيئاً من المكانة. وتركت له قدراً من الامل. فتحركت ساقاه حول المحطة هنا وهناك ، علّه يراها شاردة ، واتهم نظره بالضآلة والغشاوة ، حتى خيل اليه ان كل صبية يراها هي صفاء ، ولو كانت تلبس فستاناً آخر !

ولم يعثر لها على اثر . وأحس ان عنادها وسخفها من المحال اقتلاعها من نفسها . وأحس كأنه يريد ان يتقيأ شيئاً من نفسه ، ان يتقيأ هذه البنت من احساسه ، تلك التي اسموها خطأ صفاء ، وليس لها ذرة من صفاء الطبـــاع . ورأى أن عليه ان يذهب وراءها في اول سيارة . ترى هل استقلت سيارة روض الفرج ؟ هل تعرف كيف تصل ؟ هل تملك شيئاً من الذكاء ؟ من يدري . يجب ان يعثر عليها ، انها ابنة خاله ، فضيحة كبرى ان تضيع من عائلته في القاهرة . اجل .. تضيع من عائلته لا منه ، فلم تعد تعنيه ، لم تعد اكثر من ضيفة قريبة ، ولم تعد اكثر من صبية ريفية في الثالثة عشرة مـــن عمرها ، لا فتاة في صدرها قلب امرأة ، وفي جوانحها إحساس انثى . اوه .. اين ذهبت ؟ اين... اين ؟ وغامت نظراته حين لم يسمع جوابا .

ووقفت عربة الاتوبيس التي يريدهـــا ، فاستقلها في سرعة ، وجلس الى جوار نافذة اخذ يطل منها على الطريق ، كأنما ليراها على قيد امتار مـــن المسير . ولكنه كف عن مراقبة الرصيف الذي يطل عليه من وراء الزجاج حين تصور ان في الجانب الآخر من السيارة رصيفاً آخر ، وان على طريق السيارة شوارع عديدة فليس هناك من فائدة في مراقبة الطريق ، فالأمر كله في يد القدر .

وبدأت رجرجة السيارة تغيب من حساب جسده وسمعه واعصابه وانثالت على مشاعره صور كئيبة ، وشعر قلبه بالهوان كما لم يشعر به انسان. وأحس بالاحتقار المر ينساح في صدره ، الاحتقار لنفسه لا لهذه البنت ، اجل لنفسه تلك التي اخذت تحبها منذ ان ظهرت في حياته . ماذا احب فيها ؟ واي شيء لديها يستحق ان يجذب نظره الى هذه الفلاحة ؟

انها تفترق كثيراً عن فتاة الاحلام في رؤاه . لقد لمس فيها نقصاً مريعاً كامرأة ؛ فهي صغيرة العمر ، صغيرة الثدي ، نحيلة الساق ، عجفاء العود ؛ وهي لا تعرف كيف تقرأ إلا كما تطالع تلميذة تلهث في نطقها بالكلمات ، ولا تعرف كيف تكتب إلا كما تنحت طفلة على لوح « الاردواز » . ولقد لمس فيها نقصاً مريعاً كانسانة ستصبح يوماً زوجة لفنـــان ، فهي لا تعرف كيف تحس إلا كما تحس امرأة عجوز ابلدها الريف الشحيح فلا تتكلم الا بالامثال ، ولا تعرف كيف تعبر عن نفسها – ان كان لها نفس – عندما يهزها بالغزل والمداعبات !!

وطفت على نفسه احاسيس دفينة ، طالما حاول ان يتجاهلها ، احاسيس من الضيق والالم ، فكم من مرة رأى نظرات هذه التافهة تتجه الى اخيه في المطبخ وفي الصالة وفي حجرة اخيه ايضاً حيث تنحط تحت اقدامه بجوار المكتب . وكم من مرة شاهد هـــذه البنت ممزقة الوقت بينه وبين اخيه بل ممزقة الميول ايضاً، كأنما لا تجد لديه ما يرضي . حتى حديثها عنه وعن اخيه . ومع ان اخاه عنيف في معاملته ويضربها احياناً، فقد ظلت تساقط على حجرته، بينما هو يعاملها معاملة المحب ، يداعبها ، ويطوف حولها ، ويتبعها كصبي غر هنا وهناك ، ومع ذلك كانت تنسل منه الى حجرة اخيه وتدعه للغيرة تحرق اعصـــابه . ولم يكن يفعل هو اكثر من محاولة استخلاصها لنفسه بالتماس الاعذار لها في كل مرة بانها ما تزال تحتاج الى اللعب لا الى الغزل والمداعبات واخوه يتيح لها ان تلعب معه ومع اخوته الصغار . ولكن هل يستطيع أن يتجاهل معنى ان تلعب صبية مع شاب ؟ وهل يقدر ان يتناسى ماذا يؤدي اليه لعب بنت مع ولد ؟

ومن يدري ، ربما لا يكون امرها مع اخيه امر لعب فقط ، ربمـــا تكون من ذلك النوع من النساء الذي يجب ان يضرب ويتألم ويبكي . ثم يضاحك ويسترضي وتمسح دموعه . ترى لو انه قد ضربهـــا على سلم العمارة جزاء عنادها ، اكانت ترجع وتحترمه ؟ او كانت تحبه وحده ؟ ولكنه لا يحب ان يضرب بل يحب ان يتفاهم ، هذه طبيعته . ولكن ما هي طبيعتها ؟ أهي المرح ام حب الالم ؟ لا يدري .. فكم هي معقدة طبائع النساء .

واكتسحه احساس جارف بالحيرة ، وشعور جارف بالكراهية ايضاً ، فقد كان اسعد حالاً قبل ان تراها عيناه . يجب ان تعود الى اهلها في الريف، فلم يعد يطيق وجودها في القاهرة ، ولم يعد يريدها ابداً في بيته . اجل .. يجب ان تذهب من حياته .

وشعر كأنها ذهبت وانتهت ، فأحس بالفراغ يحتويه ، وأحس بالمـــاضي الشاغر من انثى يعود الى نفسه بقسوة ، فتلفت حوله ليراها ، ليهتف بها ألا تذهب ، فمعها فرحة العمر ، معها في ثيابها امرأة ولم يجدها ، فتنهد . انهـــا ضائعة الآن في القاهرة ، فليكن رجلاً قوياً مرة ولينزعها من دنياه . وود لو تبقى ضائعة الى الابد ، كي يعود الى هدوء اعصابه . وود لو يخلو مـــن حوله الناس ، وتصبح السيارة فضاء لا يبصر فيه احد ، كي يطلق لعينيه ان تعبرا عن المشاعر الكئيبة التي خلفتها في نفسه هذه الريفية .

ولم يلبث ان سأل نفسه في قسوة : ما الذي كان يدفعه اليهـــا في ايامه الضائعات ؟... انه الحرمان .. الحرمان من المرأة ، تلك التي يراها حوله في كل مكان ، ويمصمص شفتيه حين يراهـــا تتايس او تتحدث او تعبس .

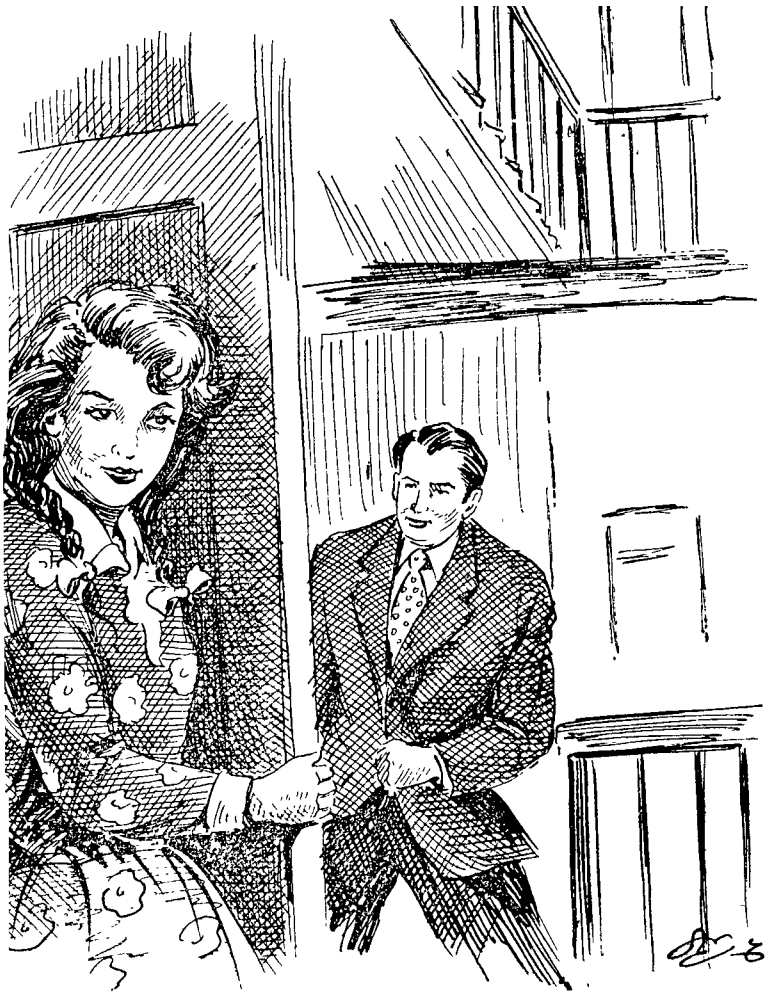

الحرمان وحده هو الذي جعل من هذه البنت حبيبة ، وجعل قلبه يتفتح لهذه الريفية العنيدة ويبتلع غصصه ، ويتنازل كثيراً عن مواصفات فتاة احلامه ، بل وجعله يحاذر في معاملته لها ، خوفاً من ان تضيع البنت من يده ، فيهات ان يعثر يوماً على سواها .

وتنهد في ذلة ، وهو يحس بالحرمان يحيله الى ذبابة .. ذبابة جائعة ، في مكان نظيف لم تجد فيه ما تأكله فتتصور اي سطح ذي لون ، شيئاً يستحق ان تعف عليه بحثاً عن القوت . اجل هو ذبابة بشرية جائعة منذ زمان في ارض مليئة بالنساء . اوه .. ما اشقى هذه الذبابة ، ليته يجد امرأة ، اذاً لما عرف هذه البنت ، ولما عف عليها من اول لحظة ، ولما احس بالطنين يسري في جسده بأشواق محروم .

وأحس كأنه يريد ان يتقيأ من نفسه شيئاً ، ان يتقيأ هذه الذبابة الحقيرة التي تسكن جسده واعصابه . ولأول مرة شعر بالاستعلاء إزاء هذه البنت بل إزاء الجنس الآخر التافه . لا .. لن يكون ابداً ذبابة ، لن يكون حقيراً لهذه الدرجة ، انها ليست من عالمه ، فلماذا يستجيب لرغبة اهلها في ان تكون له ؟ انه فتان له مثله وآماله ، له فلسفته ودنياه ، فلماذا يدع الحرمان يجعل منه هذه الذبابة الجائعة ؟ انه ليس مجرد رجل يطلب امرأة ، انه يطلب ايضاً انسانة لها احساس ، يطلب مخلوقة تحبه وحده دون اخيه . وهو لا يريد ان يصبح يوماً فيرى نفسه هايني آخر ، ويفتح عينيه ذات صباح على ماتيلدا اخرى جميلة متبلدة الاحساس . لا .. امامه بائعات الجسد كثيرات ، الى ان يجد المرأة المنشودة حين يتغلب على خجله من المرأة وخوفه من الناس...لقد انتهت هذه الريفية بالنسبة له ، وضاعت من حياته.اجل ضاعت..

وهنا فقط تذكر انها الآن في غير مكان بالقاهرة ، وانه خرج ليبحث عنها . انها اللحظة ضائعة ويجب ان يعيدها الى اهلها ، فلن يستطيع ان يواجه نظرات ابيها اذا ما ضاعت . لقد تركها له وحده لا لأمه ، فماذا يقول له آنئذ ؟

وهتف الكساري : « دوران روض الفرج » .. فنزل من السيارة ، وادار النظر حوله في الطريق ، ولم يجدها فصعد العمارة التي بها خالتها سنية.

وطرق باباً ظنه باب سنية . وفتحت فتاة حسبها لأول وهلة انها البنت الضائعة . وسألها عن .. عن .. ما اسمها ؟ لقد ضاع اسمها من رأسه ، فسألها عن السيدة سنية ، الى ان يتذكر اسم هذه البنت . فأشارت الى الشقة المقابلة وهي تخافت رغبة في الضحك من لجلجته حين حاول ان يتذكر اسم البنت . وطرق الباب المقابل فأطلت سنية المتفرنجة في ثياب العمل . وواجهته مشكلة اسمها من جديد . ما اسمها ؟ ليلى .. لكن هذا هو اسم اختها : اوه .. صفاء .. هل حضرت اليك هذا الصباح ؟ فأجابت سنية العشواء بالنفي .

وهبط الى الشارع من جديد . وانتظر على محطة الاتوبيس علها تأتي قبل ان يبلغ البوليس عن ضياعها فربما تكون قد نزلت في محطة قبل الدوران . وانتظر طويلاً حتى اقتحمه احساس باليأس من العثور عليها. وانبثق في نفسه شعور غريب . ترى لو كانت هذه قد اصبحت زوجته ، ووقف هو في مثل هذه الحالة مهيض الجناح يبحث عنها لأولادها وله ؟ وابتسم على الرغم من انها قد ضاعت ، فلم تصر زوجته بعد ، ولم يحكم عليه بأن يقف مثل هذا الموقف الذليل ، بينما سنية تطل عليه من شرفة شقتها في العمارة المقابلة . وخيل اليه انها امرأة متحضرة تعرف ما بين الشباب،وأحس بعينيها تستطلعان وجهه وتنفذان الى قلبه ، فاضطرب واغضى وجهه حياء ، ولم يلبث ان رفع وجهه اليها حين تذكر ان قلبه قد اصبح فارغاً من حب هذه الريفية .

ولمح اخيراً صفاء ، لمحها تحادث شاباً على آخر الشارع حديث من تسائله عن بيت سنية . فاجتاحت اعماقه تلك الاحاسيس القديمة التي كانت تنتابه حين يراها تحادث اخاه ، ولكنها هذه المرة تحادث شاباً آخر غير اخيه . شخصاً غريباً لا تربطه به علاقة . وخيل اليه انه يملك كل شيء فيها ، وليس لها حتى حق السؤال والاستفهام عن عنوان سنية . ودفعته الغيرة المريرة ان يتجه اليها في حزم كما يتجه زوج الى زوجته تماماً ، لينتشلها من طريق رجل . ولم يكد يصل اليها حتى كان الشاب قد تركها ومضى . فانفثأت غيرته ، وأحس بفرح، فرح طاغ يملك كل مشاعره واحاسيسه. هل كانت فرحته مردودة الى انه وجدها ولم تضع من اهله في القاهرة ، ام كانت فرحته لشيء آخر هو انها لم تذهب بعد من دنياه ؟

كل ما يعرفه انه نظر الى وجهها الاسمر الجذاب ، فلم يجد اثراً لسخف الصباح . ونظر الى عينيها الجميلتين ، فلم يجد اثراً للعناد . كانت صفاء تضحك بملء قلبها ، وهي تقرقع بحبات « اللب » تحت اسنانها الصغيرة ... كانت سعيدة . اما هو فقد اصبح ايضاً « ..... » يا عجباً . لم يعد يشعر بغيرة ولا بضيق ولا باحتقار لها . كانت امامه في تلك اللحظة فتاة حاضره وغده . ولم يعد يحمل لها في قلبه اية ذكرى بغيضة ، فقد ضاع ماضيه وما كان.واصبح لا يحمل في قلبه سوى هذه السعادة التي ترف في عينيها وتشع في قلبه دفء استرضاء هاتين العينين له .

لقد اصبح اللحظة بمرآها سعيداً ، وهو لا يعرف كيف تتشابك المشاعر في قلبه ، ولا كيف تعلو هذه السعادة الوافدة على احاسيسه الكئيبة . كان يسعده انها ذكية ، عرفت كيف تصل وحدها الى روض الفرج البعيدة ، بل بدأ يشعر شعوراً عميقاً بالإعجاب بها ، ولماذا لا يعجب بها ؟ اليست لها شخصية ورغبات ؟ وامرأة لها ذات ترغب وترفض ، شيء جميل ونادر . كيف لم

— التتمة على الصفحة ٥٦ —